التلميذة الخالدة

والتلميذة الخالدة هى مدام كورى التى قال عنها آينشتين: (إن مارى كورى، من بين جميع المشهورين هى وحدها التى لم يفسدها المجد)

ولدت فى بولونيا لأسرة متواضعة ولكنها مثقفة وطنية. وكان من سوء الطالع سنة ١٨٧٢ أن يكون المرء لولونيا -من رعايا روسيا- وينتسب إلى تلك الطبقة الذكية المرهفة الأعصاب التى تتأجج الثورة فى قلبها على المستعمر الذى عرفوا على يديه، الأصفاد وثلوج سيبريا المتجمدة. وتشرب كيان الطفلة هذه المشاعر فعندما فاجأ المفتش الروسى فصلها وبدأ يسأل اسئلته المستفزة عن تاريخ قومه اختارتها المدرسة،لنجابتها، فردت على الأسئلة وكيانها الصغير يتمزق حتى أنها، ما كاد يخرج من الفصل حتى أجهشت بالبكاء من شدة الضغط على أعصابها..

من فرط تأثرى بسيرة مدام كورى دخلت فى الموضوع بإحساس يجذبنى ونسيت البداية التقليدية وهى تقديم الكتاب أولا الذى نقله إلى العربية الاستاذ الصاوى محمد- هذا الكتاب كتبته عنها ابنتها ايف كورى أقرب الناس إليها وألصقهم وأعرفهم بها ومع هذا تقول إنها كانت تجهلها لأن العالمة الكبيرة، ظلت إلى النهاية عاجزة عن اتخاذ الموقف الذى يقترحه عليها المجد، أو الشكل الذى يقتضيه ذيوع الصيت، فلم تعرف الوقوف فى المعارض، ولم تحسن المشى فى المواكب! ولم تدر كيف تكون شهيرة.

تقول ايف كورى: (كانت أمى فى السابعة والثلاثين عندما ولدت.ولما كبرت إلى حد أن عرفتها حق المعرفة، كانت قد صارت أمرأة مسنة، بلغت ذروة الشهرة، ومع ذلك فإن «العالمة المشهورة» هى التى أجهلها، ولعل ذلك راجع إلى أن فكرة علمها وشهرتها لم تكن تشغل بالها.. بيد أنه يخيل إلىّ أننى عشت دائما مع الطالبة الفقيرة، المسحورة بالأحلام، التى كانت تدعى «مانيا» أو ماريا سكلودوفسكى» قبل أن أجىء إلى الدنيا بزمن طويل).

طفولة بائسة محرومة عرفت الحرمان المبكر من الأم فشبت لطيمة

عرفت، طفلة، فى المدرسة التى يسيطر عليها المستعمر، بمناهجه ووسائله وأدواته الجامدة والحية أى مفتشيه، يسيطر بالصلافة والغطرسة والتسلط.

ثم شبت عن الطوق فدخلت سجن الحياة. كان أول عمل لها مربية عند أسرة محام.

(إننى لا أتمنى لألد أعدائى أن يعيش فى مثل هذا الجحيم! إنه بيت من بيوت أولئك الأغنياء حيث يتكلمون الفرنسية الركيكة حينما يكون عندهم ضيوف!... وحين لا يدفعون المطلوب منهم مدى ستة أشهر، وبينا هم يلقون بالنقود من النافذة، إذ يقترون أشد التقتير فى غاز الاستصباح! ولديهم خمسة من الخدم! «فخفخة» كاذبة، هى نتيجة غباوة كثيفة.. وحيث يدور حديثهم على الخوض فى الأعراض بغير حساب.. لقد بدأت أعرف الجنس البشرى أحسن من ذى قبل، وتعلمت أن الأشخاص الذين تصفهم القصص والروايات كائنون فعلا. وأنه يحسن البعد عن الذين أبطرهم الغنى، وأفسدهم الثراء).

ومع هذا عملت حين تركتهم، مربية مرة أخرى وفى إقليم بعيد!! إن وفى كل جانب من جوانبها الأربعة دكة خشبية، وفى الوسط فراغ إذا جلس فيه المرء على كرسى يُطوى يحمله معه، وهو ما كانت تفعله ماريا فقد كانت تنطوى فوق كرسيها وقد غطت ساقيها، وتضم إليها صررها، وتعنى الفينة بعد الفينة بتعدادها.

أما فى المدينة وأى مدينة؟ باريس. تقول المؤلفة أنه لم يكن فى باريس يومئذ اوتوبوس، بل امنيبوس، بثلاثة خيول ودورين! وكان الدور الثانى من الامنيبوس- ويدعى «الامبريال» وهو المعرض لكل الأدواء، والذى يسبب الدوار، هو الذى تسرع إليه مانيا لأنه كان أيضا الأرخص.

كانت هذه باريس سنة ١٨٩١ حين كانت القاهرة فى ذلك الوقت بل قبله بعدة قرون تبهر الرحالة من شرق وغرب.. ولأن الحديث عن باريس فأنا اكتفى بوصف الغربيين لها والفرنسيين خاصة. يقول جاستون فييت (على طول الطريق من الأسوار الشمالية للمدينة الفاطمية إلى حدود المدينة الجنوبية يصاحبنا نغم متناسق بخاتمة مهيبة حيث تسمع لحنا لنشيد رفيع فخم، حين تواجه أسوار مسجد السلطان حسن، أعيننا، فى تحد قوى)

وأطرى القاهرة وأطنب المهندس الفرنسى Hector Horeau فى كتابه المطبوع ١٨٤١ Panorana Degypte et de Nubie.

مجرد مقارنة لم أملك نفسى من تسجيلها فى معرض الحديث.

***

إن الهوان الذى تجرعته (مانيا) فى طفولتها وصباها، انطوى يوم فتحت فى باريس صفحة جديدة وغدت طالبة فى السوربون.

إن العلم ثقة، وذاتية، وشخصية بل لعل رغبة التعويض عن الهوان القديم ضاعف من رغبة الاستعلاء عندها حتى كتب زوج شقيقتها إلى أبيها خطابا عن شخصيتها الجديدة. والخطاب مع تعبيره عن الظاهرة الجديدة لا يخلو من طرافة.

(كل شىء عندنا على ما يرام. الآنسة مارى تدأب فى عملها وتكاد تقضى كل أوقاتها فى السوربون، فلا نلتقى إلا عند طعام العشاء، إنها فتاة مستقلة جدا، وعلى الرغم من السلطات الرسمية التى خولتنى إياها بوضعها تحت رعايتى، فهى لا تكتفى بعدم إظهار أى احترام لى أو أية طاعة فحسب، بل تسخر منى ومن سلطتى ونفوذى، حتى كأنهما فردتا حذاء مثقوب).

على أن الفتاة ما لبثت أن استقلت استقلالا كاملا يعيشها فاستأجرت غرفة سطح كغرف الخدم فى عمارة متوسطة يأتيها النور من كوة مفتوحة فى سقف البيت المنحدر فكانت ترى المساء من ذلك المربع الضيق المحدود فلا دفء ولا نور ولا ماء.

وزودت مارى هذا المسكن بكل ما تملك من سرير حديدى يطوى، والمرتبة التى حملتها من بولونيا! وموقد ومنضدة من خشب أبيض وكرسى مطبخ، وطشت غسيل، ومصباح غاز عليه أباجور من الورق ثمنه قرش.

وسطل كان عليها أن تملأه من الحنفية التى على السلم ووابور سبرتو بحجم طبق الفنجان ظل ثلاث سنوات متوالية يكفيها لطهو الطعام!

ولنا أن نتخيل الطعام الذى يمكن أن يطهى على نار سبرتو ثم نتخيل أن هذا الطعام يتكرر أعواما.

وكم تجمدت أصابعها وارتعش كتفاها.. وكم اعتراها الدوار حتى تفقد الرشد.

وبهذا الضعف الجسدى كله... ظلت تتبع دروس الرياضيات والفيزيقا، والكيمياء حتى كانت الأولى فى (ليسانس الطبيعة) فى سنة ١٨٩٣ وكانت الثانية فى (ليسانس الرياضيات) ١٨٨٤ وكأن (ليسانس) واحدا لا يكفى.

تقول ابنتها ايف كورى: (ربما لم تفضل «التلميذة الخالدة» فى بقية حياتها، أياما، مهما كانت مجيدة أو سعيدة على أيام البؤس والعناء فى الحى اللاتينى وسط الحرمان والنيران تحلم بأن تصبر الرفيق المتواضع لكبار العلماء فى الماضى، العاكفين مثلها فى صوامعهم الضئيلة النور، وقد انتزعوا أنفسهم مثلها من الزمان، غيورين مثلها على عقولهم يحملونها إلى ما وراء علوم البشر المعروفة.

وكافأتها السماء فجعلت فؤادا رحيما من الناس يهوى إليها وظل الشاعر والعالم فى شخص بيير كورى، كلاهما يحرص على التقرب من الفتاة البولونية.

إن الفتاة التى صدمتها أسرة مخدومها الأول لهوانها عليهم، يتلهف عليها الآن، أستاذ فرنسى عالم، موفور.

وفى يوليو سنة ١٨٩٥ كتبت مارى إلى صديقتها كازيا، رفيقة المدرسة :

(عندما تصلك هذه الرسالة، تكون صديقتك مانيا قد غيرت اسمها. فسأقترن بالرجل الذى حدثتك عنه... وعندما تتسلمين هذه الرسالة اكتبى إلى «مدام كورى، مدرسة الطبيعة والكيمياء، ٤٢ شارع لومون» فهكذا سأدعى من الآن فصاعدا).

وأخيرا كما تقول ابنتها، استيقظت ماريا، لآخر مرة فى مسكن شارع شاتودان، وكان يوما صحوا جميلا. وكان وجه الفتاة رائع الحسن وقد تضوع فيه وازدهر شىء لا عهد به لدى رفيقاتها فى الدرس اليوم تصبح مدموازيل سكلودوفسكى: مدام بيير كورى.

زينت شعرها البديع، ووضعت ثوب العرس، وكان هدية من والدة كازيمير دلوسكى وكانت مارى قد قالت لها: (إننى لا أملك ثوبا آخر غير الذى ألبسه كل يوم.. فإذا تعطفت بإعطائى ثوبا، فإنى أريده قاتم اللون، نافعا بحيث استطيع بعد ذلك أن أرتديه وأذهب به إلى المعمل) ففصلت

لها خياطة متواضعة ثوبا من الصوف الأزرق القاتم، مع بلوزة أزرق فاتح، بدت فيه مارى فتانة ناضرة فتية.

وكانت مارى راضية بهذا الزواج الذى يختلف فى تفاصيله عن كل زواج.. فلا ثوب أبيض، ولا خاتم من ذهب، ولا مأدبة عرس، ولا حفلة كنسية.. لا شىء إلا التسجيل المدنى، ثم ركوب دراجتين لامعتين، اشترياهما بالأمس من هدية نقدية أرسلها أحد أبناء العم.

ودنا والدها من والد العريس وقال له بصوت خفيض متهدج شديد التأثر: (سيكون لك فى مارى بنت جديرة بالمحبة.. فهى منذ مولدها، لم تسبب لى قط ألما).

وهادنتها الأيام وعرفت أجمل الروابط التى يمكن أن تربط دائما رجلا بامرأة.

ما أجمل أن يكون الزوجان صديقين وخليلين وعاشقين وعالمين فى وقت واحد.

مضت مدام كورى فى البحث وراء المادة المجهولة وقد تابع بيير باهتمام وشغف، نجاح زوجته السريع فى تجاربها. ثم قرر أن يدع مؤقتا دراسته فى البلور وأن يضم جهوده إلى جهود مارى للقبض على المادة الجديدة العجيبة.

لقد تضاعفت الان قوة النضال. ففى ذلك «الأتليه» الرطب بشارع لومون، عقلان وأربع أيد تبحث عن الجسم المجهول.. ومن الآن نقرأ فى رسائلهما إلى الأكاديمية الموقعة منهما معا: (واحد منا رأى وواحد منا أثبت ونحن نقترح أن تسمى مادة كذا «بولونيوم» نسبة إلى مسقط رأس أحدنا).

انها هنا الزوجة المحبة ورفيقة العلم والبحث.

وهى فى البيت الأم التى تكتب إلى أختها عن ابنتها: (لقد ظهرت سن ايرين السابعة، فى فكها الأسفل، إلى اليسار. وهى تقف نصف دقيقة وحدها.. ومنذ ثلاثة أيام ونحن نحميها فى النهير. وهى تبكى وتصيح.. ولكنها اليوم (فى حمامها الرابع) قد كفت عن النحيب وضرب فى الماء بيديها. وهى تلعب مع القط، وتجرى من خلفه صائحة صيحات الحرب.. ولم تعد تخاف الغرباء وهى تغنى كثيرا وتصعد على المنضدة من فوق كرسيها).

كان هذا فى ١٥/ ٨/ ١٨٩٨ وبعد ثلاثة أشهر، دونت مارى فى ١٧/ ١٠ بفرحة:

(ايرين تمشى جيدا.. ولم تعد تمشى على أربع).

وفى ٥ يناير سنة ١٨٩٩ (ايرين لها خمسة عشر سنا).

ورسالة أخرى عن المربى التى صنعتها بيديها.

أما رسالة ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨ بأكاديمية العلوم فتقول:

(إن الأسباب المختلفة التى سبق أن عددناها هنا، تحملنا على الظن بأن المادة الجديدة للنشاط الإشعاعى تحوى عنصرا جديدا، نقترح أن يطلق عليه اسم: «الراديوم».

أليست رائعة هذه السيدة؟

فى ١٩٠٠ انهالت من انجلترا وألمانيا والنمسا والدانمارك الرسائل والاستعلامات الموقع عليها من أعظم أساطين العلم وفطاحله على عنوان شارع لومون.

وهنا ليت الزمان يتوقف لحظة صمت ليستمع مرة أخرى إلى حديث نبيل نقى صاف صفاء الخير إذ يقول بيير كورى لزوجه فى صبيحة أحد فى بيتهما الصغير بشارع كلرمان:

* هذا الكنز النفيس الذى لا نزاع فى تأثيره وانتشاره وسلطانه نحن الآن بإزاء حلين.. فإما أن ننشر، دون قيد ولا شرط نتائج بحوثنا، بما فى ذلك طريقة تنقية الراديوم.. وإما أن نعد أنفسنا كأصحابه باعتبارنا «مخترعى الراديوم» وهنا نسجل فنية الابتكار لنحفظ لأنفسنا حقوق صنع الراديوم فى العالم بأسره.

ففكرت مارى بضع لحظات، ثم قالت:

* هذا مستحيل. إنه يكون مخالفا للروح العلمى.

وحاول الزوج أن ينبهها إلى حياتهماالعسيرة الشاقة وأن لهما طفلة وقد يرزقان أولادا غيرها. وجاء الرد مرة أخرى:

* الراديوم سيستخدم فى مصلحة المرضى فيبدو لى محالا أن نكسب من وراء هذا.

وفى هدوء قال الزوج: (سأكتب إذن هذا المساء إلى المهندسين الأمريكان بكل التفاصيل التى يطلبونها).

بعد ربع ساعة من ذلك الحديث القصير والخطير، ركبا بيير وماري دراجتيهما العتيدتين واتجها نحو غابات كلامار Clamart وهما أفقر الفقراء وأغنى الأغنياء في وقت واحد.

وفي المساء عادا بجيوب خاوية وأذرع حالية محملة بزهور البرية وطاقات المروج.

***

قصة تهدى لتجار الحروب وسارقي الشعوب ومخترعي القنابل الذرية والرءوس النووية لأن رءوسهم محروبة وضمائرهم منخوبة، وجلودهم يسكنها شيطان يحمل وجه إنسان.

obeikandl.com